﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين نهْيِ الملائكةِ عنِ القُنوطِ، وتأكيدِ إبراهيمَ علْمَه الوثيقَ بذلك

لَمّا كان استعجابُ إبراهيمَ عليه السلام باعتبارِ العادةِ دون أن يكونَ استعجابُه لقدرةِ اللهِ على الفعلِ جاءت هذه الآيةُ[1].

وأيضًا لمّا ألهبوه بالنّهيِ عن أن يكونَ منَ القانطين ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ ليزيدَ إبراهيمُ الملائكةَ علْمًا على علْمِهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: أصلُ (ضلّ): يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ، وَذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّه[3]. والضّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن، إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسِي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[4]. والضَّلالُ: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق. وضَلِلْتُ الشَّيْءَ أضِلُّهُ إذا جعلتَه في مَكان وَلم تَدْرِ أين هو، وأضْلَلْتُه، أي أضَعْتُه[5]، ورجلٌ مُضَلَّل أي لا يوفَّقُ لخير، صاحبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ. وفلان صاحبُ أضاليلَ، الواحدةُ أُضلولةٌ[6]. والضّالَّة: الحيوانُ الضّائع[7]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصودُ بالضَّلالِ في الآيةِ: خطأُ الطَّريقِ الموصِّلِ إلى المَقْصودِ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلّ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلّ).
(6) الخليل، العين: (ضلّ).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ضل).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

القنوطُ لا يكونُ إلّا مِنَ الَّذين يَضلّون عنِ الله تعالى، ويَنأون عن هدايتِه

قال إبراهيمُ للضَّيف: ومَن ييئَسُ مِن رَحمةِ اللّهِ إلّا الذّاهِبونَ عن طريقِ الصَّوابِ، الجاهِلونَ بكمالِ قُدرةِ ورَحمةِ اللّهِ الوهّابِ، وأمّا من أنعم اللّه عليه بالهداية والعِلْم العظيم، فلا سبيلَ إلى القنوط إليه؛ لأنَّه يعرفُ من كثرة الأسبابِ والوسائل والطُّرقِ لرحمة اللّه شيئًا كثيرًا، ثمَّ لمّا بشّروه بهذه البشارة، عرف أنَّهم مُرسلون لأمرٍ مُهِمٍّ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتئنافِ البيانِّي في الآية:

مُحاورةُ الأنبياءِ في البِشارة اغتباطٌ لا قنوطٌ

لمّا قال له الملائكة ذلك القولَ كأنَّ سائلًا سأل: فماذا أجابهم إبراهيمُ عليه السلام، فجاءت هذه الآيةُ، وفي الآية إشعارٌ بأنَّ المُحاوَرَةَ في البِشارَةِ لا تَدُلُّ على القُنوطِ، بَلْ ذلك على سَبيلِ الاسْتِبْعادِ لِما جَرَتْ بِهِ العادَةُ[2].

سَببُ مَجيء الوصْلِ بالواو في السّياق:

تقريرُ إبراهيمَ لقولِ الملائكةِ، إيمانٌ منه بما جاؤوا به

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه لمّا كانتِ الواو للعطف، وكان العطف بالواو لكلامٍ يكونُ من متكلِّمٍ واحدٍ دلَّ على أنَّ في الكلامِ حذفًا هو من كلامِ سيّدنا إبراهيمَ عليه السلام، فكأنَّه قال: بشارتُكم من رحمة اللّه ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، أو يكون قد قرّر قولَهم إيمانًا بما جاؤوا به وعطفَ عليه قولَه المذكورَ، فكأنَّه قال: أنا لا أقنطُ من رحمة اللّه التي بشّرتموني بها ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/85، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/486.

بَلاغةُ الاسْتفهامِ المجازيِّ في الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه أنّ (مَنْ) استفهاميَّةٌ تفيد الإنكارَ الوقوعيَّ فيكونُ الاستفهام بمعنى النّفي على المجاز، أي لا يقنطُ أحدٌ، ولهذا جاءت بعدَه ﴿إِلَّا﴾، ليفيدَ الاستفهامُ الإنكارَ على من يقنطُ من رحمةِ اللّه ونفيَ القنوطِ عن كلِّ عاقلٍ إلّا الضّالين، ويتولَّدُ منه معنى التّعجّب ممّن يقنطُ من رحمةِ اللّه أو يستبعدُها، ليفيدَ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يستنكرْ ذلك قنوطاً من رحمة ربِّه، ولكنِ استبعاداً له في العادةِ التي أجراها في عبادِه وخلْقِه[1].

الإنكارُ والعَجبُ كلُّ العجَبِ، ممّن يقنطُ من رحمةِ الله الواسعةِ

بَلاغةُ التّعْريض في قولِه ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾:

لمّا ذكرَ إبراهيمُ عليه السلام لفظ الرّبِّ دونَ أن يقول (من رحمة اللّه) وكان قد قصر اليأسَ على الضّالّين الجاهلين وجاء الكلام على طريق الإنكارِ على القانطين من رحمة ربِّهم كان في الكلام نوعُ تعريضٍ بأنّهم لم يصيبوا في نهيِه عنِ القنوط، فإنَّه غيرُ متوقَّع منه عليه السلام ولا ينبغي له أن يفكّر به[2].

القُنوطُ غيرُ متوقَّعٍ من إبراهيمَ عليه السلام، ولا ينبغي له

سببُ إيثارِ التّعبيرِ باسمِ الاستفهام (مَنْ):

عبَّرَ بـ(مَنْ) ليُفيدَ الاستفهامُ الإنكاريُّ معنى العموم من جميع العقلاء، للإشعار بأنَّه لا ينبغي للعاقلِ أنْ يقنطَ من رحمةِ ربِّه، فيكونَ الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ استثناءً منَ العموم.

لا يَنبغي للعاقلِ أنْ يقنطَ من رحمةِ ربِّه أبدًا

مُناسبةُ مجيءِ الفعلِ ﴿يَقۡنَطُ﴾ بصيغةِ المضارع:

عبَّرَ بصيغة المضارع للدّلالة على تجدّدِ الحكم بالإنكار من يقنطُ من رحمة ربِّه واستمرارِه، وأنَّه إنْ وقع القنوطُ من رحمة ربِّ العالمين فإنّما يقعُ منَ الضّالين.

تجدّدُ الحكم واستمرارُه، مُفيدٌ لوصف حالةِ القنوطِ المُستهجَنة

---

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/785، والنّسفي، مدارك التنزيل: 2/193، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/82.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

كلُّ نَوالٍ مِنَ اللهِ، هو رحمةٌ من كرمِه وعطاياه

سببُ إيثارِ التّعْبيرِ بقولِه: ﴿رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾:

لمّا كان القنوط هو الإياسَ ممّا فيه خيرٌ، عبَّر بقولِه: ﴿مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ للإيذانِ بأنَّ أعظمَ الخير وأشملَه رحمةُ ربِّ العالمين، وأنَّ كلَّ نوالٍ من اللّه هو رحمةٌ منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قولُ إبراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، من آثارِ تربيةِ الله تعالى له

سببُ إيثارِ التَّعْبِيرِ بلفْظِ ﴿رَبِّهِۦٓ﴾:

قولُه تعالى: ﴿رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾، وفيه أنّ اختيارَ لفظِ الرّبِّ هنا من بين سائرِ الأسامي - فلم يقل مثلًا (من رحمة اللّه) - أوقعُ في المعنى وأكثرُ تأثيرًا في الإنكار، للإشعار بأنَّ قولَه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من آثار تربيةِ اللّه تعالى له[1].

القُنوطُ من رحمةِ الله، مقصورٌ على الضّالّين خُصوصًا

بَلاغةُ القصْرِ في سِياقِ الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه أنّه لمّا دلَّ القصرُ على أنَّ القنوطَ من رحمةِ ربِّ العالمين، مقصورٌ على الضّالين، أفادَ أنَّه لا يتجاوزُهم إلى غيرِهم ولا يتخطّاهم، ولمّا كان القصرُ بطريق النّفيِ و(إلّا) يُسلَكُ مع مخاطَبٍ يعتقدُ فيه المتكلِّمُ أنَّه مرتكبٌ للخطإِ مع إصرارٍ عليه أُخْرِجَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، وبيانُه أنَّ الملائكةَ لمّا قالوا له ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ أبرزَهم في معرِضِ من ظنَّ فيه خطأ أنَّه منَ القانطين، مع إصرارِهم على هذا الظنِّ فجاء القصرُ بهذا الأسلوب؛ ليفيدَ أنَّه على يقينٍ من رحمةِ ربِّه وبالبِشارَةِ التي أتَوا بها.

قولُ إبراهيمَ أعمُّ من قولِ الملائكةِ، وأكثرُ فائدةً

بَلاغةُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾:

لمّا جاء الكلامُ على معنى العمومِ والكلّيَّة بذكر المسنَدِ والمسنَدِ إليه بصيغةِ العموم كان قولُ إبراهيمَ أعمَّ من قول الملائكةِ وأكثرَ فائدةً، لينبِّههم على أنَّه عارفٌ باللّه عالمٌ بأوصافِ الجلال والجمالِ.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

نُكتةُ استثناءِ الضّالّين في الآيةِ الكريمةِ:

الضّالُّ هو من ذهبُ منه الحقُّ، أو من ابتعدَ هو عنِ الحقِّ

استُثنِيَ الضّالّون في الآية دون غيرِهم، فلم يقل مثلا (إلّا الكافرون)؛ لأنَّه لمّا كان الضّالُّ هو الذي ذهب عنه الشّيءُ بعدَ أن كانَ قائمًا عنده، فلا يعرفُ موضعَه، أو ذهب هو عنِ الشّيء بعدَ أن كان بين يديه عبِّرَ به للإيذانِ بأنَّ الضّالَّ هو الذي ذهب منه الحقُّ بعدَ أن كان قريبًا منه، فكأنَّه قد أضاعه من بينِ يديه، أوِ ابتعدَ هو عن الحقِّ بعدَ أن كان بين يديه، فهو ضالٌّ عنِ الهدايةِ والرّشادِ.

فائِدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾:

رَحمةُ الله تَسَعُ الخلْقَ، ويأتي منها ما يُتعجَّبُ منه

(ال) هنا تفيدُ استغراقَ الأفراد على معنى الوصفِ الكاملِ في الضّلال، والمعنى لا يقنطُ من رحمة اللّه إلّا الكاملُ في الضّلال على معنى استغراقِ جميع الأفرادِ، وإنَّما قصَرَ القنوطَ على الضّالِّين؛ لأنَّ الضّالَّ يَجْهَلُ كَوْنَ اللّه تعالى قادرًا على ما لا يكونُ في العادة، ويجهلُ أنَّ رحمةَ اللّه تسَعُ الخلقَ ويأتي منها ما يُتعجَّبُ منه، ويَجْهَلُ كَوْنَهُ تعالى عالِمًا بِاحْتِياجِ ذلك العَبْدِ إلَيْه، ويَجْهَلُ كَوْنَهُ تعالى مُنَزَّهًا عَنِ البُخْلِ والحاجَةِ والجَهْلِ فَكُلُّ هذه الأُمورِ سَبَبٌ لِلضَّلالِ[1].

سِرُّ مجيءِ لفْظِ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ بالجمْعِ:

كثرةُ الضّالّين، لا تمنعُ من مواصلةِ طريقِ الحقِّ

لم يقل: (من يقنط من رحمة ربِّه إلّا الضّالُّ) للإشعارِ بكثرةِ الضّالّين عن طريق الهدايةِ، وللتَّحذيرِ منَ الانضمام إلى جماعةٍ ضالّةٍ؛ فإنَّهم يُضِلّون غيرَهم.

نُكتة حذْفِ مُتعلِّق ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾:

من أعظمِ الضّلالِ، القنوطُ المهينُ، من رحمةِ ربِّ العالمين

حُذِفَ متعلَّقُ اسم الفاعلِ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ للإيذانِ بأنَّ المرادَ مَن صارَ الضّلالُ وصفًا لازمًا لهم، أي لا يأتي منهم إلّا الضّلالُ، ومن أعظم الضّلالِ قنوطُهم من رحمةِ ربِّهم، فهو أمرٌ عظيمٌ مَهولٌ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/152.

لكلّ وجهٍ في القراءةِ القرآنيّةِ، وجهٌ في اللّغةِ العربيّةِ

دَلالةُ تَوجيهِ القراءاتِ في ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾:

قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامر وحمزةُ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾ بفتح النّون في كلِّ القرآن، وقرأ أبو عمرو والكسائيُّ: (وَمَنْ يَقْنِطُ) بكسر النّون، فَمن قَرَأ (يَقْنِطُ) قالَ: (قَنَطَ) في الماضي، وَمن قَرأ ﴿يَقۡنَطُ﴾ قالَ: (قَنِط)، و(قَنِطَ يقنَطُ وقَنَطَ يقنِطُ) لهجتان من لهجاتِ العربِ فصيحتان مشهورتان[1].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/366، وابن الجزري، النشر: 2/302.